

عصارة الكتب

قراءة في كتاب: تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره

لجنة البحوث والدراسات بمجلة مدارك



بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: تفسير ابن عربي للقرآن: حقيقته وخطره

المؤلف: الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (ت 1398هـ)

الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة

الطبعة: الثانية

عدد الصفحات: 31 صفحة

فصول الكتاب:

مقدمة، ثم سبعة فصول: نشأة التصوف وتطوره، التفسير الصوفي النظري أو الفلسفي، ابن عربي والتفسير النظري الفلسفي، كلمة الحق في التفسير النظري الفلسفي، التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري، موقف ابن عربي من التفسير الإشاري، رأينا في مقالة ابن عربي، حقيقة التفسير المنسوب لابن عربي.

قراءة مختصرة للكتاب

هذا الكتاب رسالة نقدية قصيرة ومباشرة الغرض؛ كتبها الذهبي بدافع الاعتراض على إعادة طباعة التفسير المنسوب إلى ابن عربي، ويرى أن تداوله بين القراء يعيد إحياء نصٍّ يشتمل على انحرافات منهجية وعقدية في باب التفسير. ومن البداية يصرح المؤلف بأن باعته إلى التأليف هو دهشته من شروع بعض دور النشر في مصر وبيروت في طباعة هذا التفسير وإخراجه للناس من جديد بعد أن كاد يختفي من التداول. والكتاب، على صغر حجمه، منظم تنظيمًا جدليًا واضحًا: يبدأ بتمهيد تاريخي عن التصوف، ثم يميز بين نوعين من التفسير الصوفي، ثم يطبق هذا التمييز على ابن عربي، ثم يصدر حكمه النقدي، وأخيرًا يناقش قضية نسبة التفسير إلى ابن عربي أو إلى عبد الرزاق القاشاني. ولهذا فهو أقرب إلى مذكرة علمية حاجية منه إلى دراسة موسعة.

تلخيص فصول الكتاب

(1) المقدمة

في المقدمة يعلن الذهبي موقفه من غير موارد: هو يرى أن إعادة نشر التفسير المنسوب إلى ابن عربي خطرٌ على القراء، لأن هذا التفسير - في نظره - يحمل زيغًا وفسادًا، ويوقع العامة وأشباه العامة في الشك والحيرة. لذلك فالمقدمة ليست تمهيدًا محايدًا، بل هي إعلان مقصود عن غرض الكتاب: التحذير من هذا التفسير، وبيان حقيقته.

(2) نشأة التصوف وتطوره

يفتح الذهبي هذا الفصل بالكلام على أصل لفظ التصوف والخلاف في اشتقاقه: من الصوف، أو الصفاء، أو الصفة، أو أنه لقب لا اشتقاق له. ثم ينتقل إلى الإشارة إلى تطور التصوف من طور الزهد والتقشف إلى طور أوسع دخلته مصطلحات ومذاهب وتأويلات. ووظيفة هذا الفصل ليست السرد التاريخي المفصل، بل تهيئة القارئ لفهم السياق الذي خرج منه التفسير الصوفي، وخاصة حين تجاوز بعض المتصوفة حدود الزهد العملي إلى بناء نظريات وتأويلات خاصة.

(3) التفسير الصوفي النظري أو الفلسفي

في هذا الفصل يضع الذهبي تعريفه الأول لموضع النزاع، فيقرر أن التفسير الصوفي النظري أو الفلسفي يقوم على مباحث نظرية وتعاليم فلسفية، وأن الصوفي صاحب هذه النزعة ينظر إلى القرآن من خلال مذهبه المسبق، ثم يحاول أن يجد في الآيات ما يشهد لنظرياته، ولو بتكلف شديد. وخلاصة الفصل أن هذا النوع من التفسير لا ينطلق من النص، بل من النظرية، ثم يُسقطها على النص بعد ذلك.

4) ابن عربي والتفسير النظري الفلسفي

هنا يطبق الذهبي تعريفه السابق على ابن عربي مباشرة، فيجعله أبرز ممثل للتفسير الصوفي النظري، بل يصفه بأنه شيخ هذه الطريقة في التفسير. ثم يورد أمثلة من تفسيراته ليبين أنه يربط بعض الآيات بمفاهيم كونية وفلسفية، كما في تفسيره لقوله تعالى: *{ورفعناه مكانًا عاليًا}*، حيث يربطها بنظام الأفلاك والمقامات الكونية. والنتيجة التي يريدها الذهبي الوصول إليها من خلال هذا الفصل هي أن ابن عربي - في رأيه - لم يفسر الآيات بحسب دلالاتها العربية الظاهرة، بل قرأها من خلال مذهبه الفلسفي.

5) كلمة الحق في التفسير النظري الفلسفي

هذا الفصل هو موضع الحكم الصريح في الكتاب. بعد عرض الأمثلة، يقرر الذهبي أن التفسير الصوفي النظري يخرج القرآن عن هدفه؛ لأن القرآن يقصد مقاصد معينة، بينما يقصد الصوفي النظري أهدافًا أخرى تتصل بفلسفته، ثم يحاول حمل النص عليها. ويرى أن هذا ليس خدمة للقرآن، بل خدمة للفلسفة الصوفية على حسابه، وأنه ينتهي إلى تأويل يضر بالدين ولا يبين مراد الله من كلامه. فهذا الفصل هو خلاصة الموقف النقدي من هذا النوع من التفسير.

6) التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري

بعد نقد التفسير النظري، ينتقل الذهبي إلى نوع آخر، وهو التفسير الصوفي الفيضي أو الإشاري. ويعرّفه بأنه تأويل الآيات على خلاف ظاهرها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، مع إمكان الجمع بينها وبين الظاهر المراد من الآية. ثم يبين الفرق بينه وبين التفسير النظري: فالنظري يقوم على مقدمات ذهنية ونظريات سابقة، أما الإشاري فيزعم أصحابه أنه ثمرة حال وذوق وإلهام. أهمية هذا الفصل أنه يُظهر أن الذهبي لا يضع كل التفسير الصوفي في سلة واحدة، بل يفرق بين الفلسفي المنهجي وبين الإشاري.

(7) موقف ابن عربي من التفسير الإشاري

في هذا الفصل يناقش الذهبي إمكان حمل كلام ابن عربي على الإشارة المقبولة، ويذكر أنه كان يود أن يقف منه موقف حسن الظن، كما فعل بعض أهل العلم مع الصوفية، لكن ما اطلع عليه من نصوص ابن عربي في الفتوحات وغيرها جعله يعدل عن هذا الظن. ومعنى ذلك أن الذهبي لا يرى أن مشكلة ابن عربي مجرد إشارات عابرة يمكن التسامح فيها، بل يرى أن عنده منهجاً أوسع وأخطر من مجرد الإشارات الذوقية المقبولة.

(8) رأينا في مقالة ابن عربي

هذا الفصل من أهم فصول الكتاب؛ لأنه يبين بدقة موقف الذهبي التفصيلي. فهو لا ينكر أصلاً أن الله قد يفتح لبعض عباده أفهاماً خاصة في كتابه، ولا يمنع أن تكون لبعض أهل السلوك معانٍ دقيقة، لكنه يشترط شرطين حاسمين: أن تكون هذه المعاني داخلة تحت مدلول النص القرآني ، وأن يكون لها شاهد شرعي يؤيدها. أما إذا خرجت عن مدلول اللفظ العربي، ولم يشهد لها الشرع، فلا يجوز قبولها على أنها تفسير للآية. بهذا الفصل يقرر الذهبي أن الإشكال ليس في الفهم الزائد من حيث هو، بل في تجاوز العربية والشرع باسم الإشارة والكشف.

(9) حقيقة التفسير المنسوب لابن عربي

في الفصل الأخير يناقش الذهبي مسألة نسبة هذا التفسير. فيذكر أن بعض الناس يثبتون نسبته إلى ابن عربي، بينما يرى آخرون أنه من عمل عبد الرزاق القاشاني ، وإنما تُسبب إلى ابن عربي لشهرته. وينقل في هذا السياق رأي الإمام محمد عبده، كما رواه رشيد رضا، ومفاده أن هذا التفسير في الحقيقة للقاشاني، وفيه نزعات يتبرأ منها الدين وكتاب الله. والذهبي لا يجعل مسألة النسبة هي أصل القضية، لكنه يوردها ليبين أن الإشكال في المتن نفسه باقٍ سواء صحّت النسبة أو لم تصح.

التقييم العام للكتاب

قيمة هذا الكتاب أنه شديد الوضوح، سريع الدخول إلى موضع الخلاف، ومفيد جدًا في بيان الفروق المنهجية بين التفسير الصوفي النظري و التفسير الإشاري ، وفي كشف اعتراضات المدرسة السنية الحديثة على توظيف القرآن لخدمة المذاهب الفلسفية الصوفية. كما أن ترتيبه المختصر يجعله صالحًا للطالب المبتدئ وللقارئ الذي يريد مدخلًا مركزًا إلى القضية.

وفي المقابل، فالكتاب كتاب نقد وتقويم لا كتاب عرض متوازن لمجمل تراث ابن عربي. لذلك فهو ينجح جدًا في أداء وظيفته التحذيرية، لكنه لا يقصد أصلًا أن يكون دراسة شاملة لكل طبقات خطاب ابن عربي أو لكل ما قيل في نسبة التفسير إليه. ومن ثم فقراءته نافعة جدًا بوصفه نصًا ممثلًا لموقف نقدي صارم، لا بوصفه الكلمة الأخيرة في كل ما يتعلق بابن عربي والتفسير الصوفي.

المصادر :

[1]: <https://shamela.ws/book/10089> كتاب تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره - المكتبة الشاملة